الترجمة

خطرها وأثرها فى الأمم المختلفة

للدكتور عبد العزيز عزت

٢ – عند الرومان

ونجد أثر الرواقيين والأكاديمية الجديدة فى كل كتبه الأخرى وعلى الخصوص فى « غايات الخير والشر » وهو أهم كتاب لشيشرون بإجماع مؤرخى الفلسفة ، ويشرح فيه الأخلاق النظرية ، وهى ترتكز على حرية الإرادة التى تتضمن سياسة النفس الفردية وانسجامها مع منطق المجتمع البشرى ، وتفهم إرادة الوجود العالمى الذى فيه الإنسان جزء بسيط فى مرتبة الكائنات المختلفة التى تتسلسل في درجات متصاعدة حتى تبلغ القداسة السماوية . كذلك فى كتابه الواجبات ويشرح فيه الأخلاق العملية معلناً أن مغريات الحياة الخارجية أعراض زائلة يجب الزهد فيها ، ويجب التماس النافع منها لتقوية روح الإنسان لفعل الخير ومقاومة الشهوات الجامحة والانفعالات الثائرة ، كى يصل الإنسان إلى تلك الجنة النفسية الداخلية التى يصورها الرواقيون فى تفكر الفلاسفة والحكماء ، وكذلك فى « طبيعة الآلهة » حيث يعرض للإلهيات والطبيعة . وبينما يتأثر فى الجزء الأول منها بأبيقور ومذهبه فى اللذة فى مجال الأخلاق وفلسفة الطبيعة عامة ، يتأثر فى الجزء الثانى بفلسفة الرواقيين من حيث خلق العالم وترتيب نظامه وعناصره ومخلوقاته ، ثم هرمه وتناقصه حتى المبدأ الفطرى الأول حيث تحصل الطهارة ويخلق العالم من جديد وتتم دورة نظامه . وهو أهم هذه الأجزاء لأنه يبسط آراء كريزيب وكليانت ، وفى الجزء الثالث يحدثنا كونا عن آراء أرسطو

وبجوار ذلك ترجم شيشرون الكتب الآتية من أولها لآخرها وهى كتاب لزينوفون ، (ولقد ضاعت هذه الترجمة) وكتاب البروتا جوراس لأفلاطون وهى من كتب عهد الصبا حيث يتأثر أفلاطون بتعاليم سقراط الأخلاقية إذ يتساءل فيها عن صفات الفضيلة : أهى طبيعية فينا أم هى مكتسبة بالتعلم والتمرين والعادة ؟ (ولقد ضاعت هذه الترجمة) ، وترجم لأفلاطون كذلك كتابه العظيم الخالد ، الذى يلخص كل فلسفته وكل العلم اليونانى حتى زمان أفلاطون وهو كتاب « طيماؤوس » وفيه يتكلم أفلاطون عن رحلاته وعن روح العالم ، وكيف تتوسط بين الخالق الفنان وبين سائر المخلوقات التى تنتظم فى ترتيب يحقق جمال عالم المثل . وبعد أن يعرض لطبائع المخلوقات بالتفصيل مبتدئاً من الله وممقباً بالعالم السماوى ثم بالإنسان والحيوانات والنباتات والجمادات ، يمهد لرأيه فى السياسة الذى يبسطه بعد ذلك فى « جمهوريته » وفى نواميسه . « فطياؤس » هذا هو أهم كتاب فى نظرى تركه العالم اليونانى وسار سواء فى العالم الرومانى عن طريق شيشرون أم فى العالم العربى بعد ذلك حيث ترجمه حنين بن إسحاق وأصلحه يحيى بن عدي كما يؤكد ذلك العلامة لكليرك فى كتابه « تاريخ الطب عند العرب » الجزء الأول ، وكما يؤكد القفطى في مقالته عن أفلاطون فى أخبار الحكماء . ولقد شرحه أخيراً بالفرنسية أستاذنا العلامة ألبير ريفو فى مجموعة بيدى

فمؤلفات شيشرون بنوعيها سواء المترجم منها أم التى يسودها الترجمة فى أغلب أجزائها تدل دلالة واضحة على أنه لا أهمية لشيشرون كمؤلف ، لأنه لم يضف شيئاً جديداً إلى ما قاله اليونان القدماء . وهذا راجع إلى أن عقلية الرومان عقلية عملية تهتم بالحياة الجارية أكثر من الحياة الفكرية ، وبحياة الفتح والغزو أكثر من حياة الاستقرار والانتاج ، وبحياة القهر والاستعباد والقانون والعقاب أكثر من حياة الحقيقة المجردة والخطأ الفكرى واصلاحه وواجب الفضيلة وتأنيب الضمير . عقلية تمتزج بعوارض الدنيا ، وإذا أرادت أن تتحرر من قيود المادة هامت على وجهها فى ميدان العقل . فنجد مثلا شيشرون يخطىء فى التعليق على آراء الفلاسفة كما يفعل عند ما يتكلم عن عناصر المادة فى الكاديميك مما دعا العلامة تيوكور فى رسالته لدكتوراه الدولة أن يصفه بأنه فيلسوف بالواسطة لا بالذات . وأهمية شيشرون فى نظر هذا العلامة تنحصر فى أن مؤلفات شيشرون تكوّن موسوعة لا يسبر غورها لفلسفة اليونان وخصوصاً للفلاسفة الذين جاءوا بعد أفلاطون وأرسطو مباشرة وضاعت كتبهم أى الفلاسفة

الرواقيون ، لأن العلامة لوسيان ليفى فى شرحه « لنواميس » شيشرون يذكر أن لكريزيب نحو ستمائة كتاب أغلبها إن لم يكن كلها قد فقد . ولخلق مثل هذه الشخصيـة العظيمة يرجع أستاذنا إميل برهييه E, Bréhier فى كتابه عنه إلى شيشرون فى كل صفحة من صفحاته . ولزيادة الدقة فى البحث نذكر أن الكتب الرواقية المفقودة والتى نستعيض عنها بمؤلفات شيشرون هى كتب الرواقيين القدماء أى زينون وكليانت وكريزيب ، وليست كتب الحديثين منهم أى بنيتيوس وبسدونيس الذين كادوا يعاصرون شيشرون فى زمانه ، ونحن فى هذا نعتمد على رأى العلامة جورتز

ويجب ألا يتطرق إلى ذهن القارىء أن ضعف شيشرون فى هضم الفلسفة يرجع إلى عيب فى مداركه ، فللحكم عليه يجب ألا نتأثر بحالتنا الراهنة للفلسفة فى أوروبا ، وإنما يجب أن نرجع إلى حالة الفلسفة فى عهده . فسنجد أن ما نسميه الآن ضعفاً كان قوة ، وكان هو سيد العبقريين فى زمانه بين أهله وعشيرته ، بل إن ما نسميه الآن ضعفاً كان فضيلة لها ميزتان : الأولى أنه أخلص لعبقرية جنسه فأثبت أنه عريق فى الرومانية يمت إلى أهله بأصل ثابت ، فلم ينفرد عنهم بقوة التجريد . الثانيـة أنه لم يتصرف فيما نقله عن فلاسفة اليونان فكانت مؤلفاته أو بالأحرى « ترجماته » خير معبر صادق عما ضاع من نصوص ، وخير معين على تتبع حركة الفكر عند اليونان دون ضياع حركة ما

ويجب أن يعلم القـارىء مع ذلك أن شيشرون لم يكن فيلسوفاً « محترفا » وإنما كان على وجه الخصوص سياسياً ماهراً وخطيباً مصقعاً لم يعرف التاريخ له مثيلا ، وأنه اتخذ من الفلسفة وسيلة لتدعيم مركزه فى الأوساط الرومانية وبين أعضاء مجلس الشيوخ بروما ، فكلما حيل بينـه وبين منبر الخطابة ذهب إلى الفلسفة ليشرح إلى بنى وطنـه أصول المعرفة فيتصل بهم عن طريق العقل والآراء فلا ينسونه وهو بعيد عن حظيرة السياسة . كذلك وجد فى الفلسفة وسيلة لتربية ابنه ، وسائر أبناء وطنـه فهو يقول : « إذا كان الخطيب المصقع له الحق أن يعلم ذلك الفن الذى أثبت قدرته فيه مرات ، فلسياسى الحق أن يلقن شباب المستقبل بعضاً من المبادئ والدروس البالغة » (إقرأ لكليرك « مؤلفات شيشرون الجزء الثانى عشر صفحة ٣) . ويذكر العلامة بيشون فى كتابه « تاريخ الأدب اللاتينى » أن شيشرون اتخذ من الفلسفة وسيلة لتفهم القانون الرومانى الذى ساد فى زمانه واستيحاء هـذا القانون خلال تلك المبادىء العقلية فى خلق فلسفة سياسية نجدها فى جمهوريته ونواميسه . والفلسفة بعد ذلك كانت وسـيلة للعزاء فى آخر حيـاة شيشرون لأنه فقد زوجتـه بعد حياة ثلاث وثلاثين سـنة واضطر إلى الزواج من أخرى صغيرة السن لم تستقم سيرتها مع ابنته التى ماتت بعد ذلك فى شـبابها المبكر ؛ فلزم الحزن وسطر كتابه « التأسى » (اقرأ القسيس العلامة برتران فى كتابه « منتخبات من مؤلفـات شيشرون فى الفلسفة ») وعليـه فالفلسفة عند شيشرون لاحقة بالسياسة وتابعة لها وهى وسيلة عنده لاغاية ، وإن كان هذا يقلل من قيمته كمؤلف إلا أن مؤلفاته لنفس هـذا السبب ذات قيمة تاريخية عظيمة جداً .

ومهما يكن من شىء فشيشرون فى جملة القول يتأثر فيما يبسطه فى كتبه بمذهب الرواقيين ومذهب الأكاديمية الجديدة ؛ وإن مؤلفاته تحل محل المؤلفات اليونانية الضائعة فلا تضيع حركة تاريخ الآراء والمذاهب عندهم . ثم إن لمؤلفاته قيمة أخلاقيـة إذ شرحت للناس طوال القرون الوسطى فى أوروبا أصول الفضائل العملية والنظرية لأن أفلاطون وأرسطو لم يعرفا على حقيقة أمرهما إلا عن ترجمـة آباء الكنيسة للتراث الاسلامي ، وبمساعدة علماء اليهود في اسبانيا إبان القرن الثالث عشر الميلادى . ولها فى النهاية قيمة أدبية لأن أسلوب شيشرون له ميزاته ، فهو يبسط الآراء لا فى شكل متتابع بل فى شكل حوار ؛ فهو يقلد أفلاطون فى ذلك ، ولم يخرج عن هذه القاعدة من مؤلفاته إلا ال de officiis أى الواجبات ؛ وال Paradox أي المحيرات

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة